قراءة في كتاب "بورديو(*)

حوصلة وعرض

محمد بشير

مقدمة:

يرجع اختيارنا لعرض هذا الكتاب المندرج في سياق السير الكبرى لعمالقة الفكر في محاولة منا إبراز بعض الأوجه الخفية في حياة بورديو، وتكمن أهمية هذا الكتاب في إطار المحطات التاريخية الأساسية في سيرته وذلك منذ ولادته سنة 1930 ب "دانقون Denguin "بالقرب من مدينة "بو .Pau "

جاء هذا الكتاب في خمسمائة وثمانية وثلاثين (538) صفحة مبوب إلى ثلاثة أقسام:

بورديو قبل بورديو: تم التركيز على المراحل الأولى من حياته وتحول نظرته من خلال تجربته في الجزائر بين 1960/1955 وكذا منعطفه السوسيولوجي وأستاذيته في التعليم العالي.

بورديو السوسيولوجي: عالج هذا القسم الحقول السوسيولوجية التي وضعها على هرم أولوياته العلمية.

السوسيولوجي والواقع: أظهر هذا المحور صفات "بورديو" كمساعد تقني والموظف في خدمة الإنسانية.

وتم الاعتماد في انجاز هذه السيرة على حوالي ثلاثين مرجع من مؤلفات بورديو كانت فردية أو جماعية، وسبعة وستين مرجع تناولت أعماله بالدراسة والتمحيص بين كتب ومقالات وحوارات في تخصصات مختلفة منها السوسيولوجيا والفلسفة والتاريخ والإثنولوجيا، كما دُعم هذا العمل بألف ومئتين واثنين إحالة مما ينم على الجدية والمثابرة والجهد والتقدير الكبير عرفانا من المؤلفة للمفكر.

-1- بورديو الإنسان:

لقد وصف بأوصاف متعددة ومختلفة بل متناقضة في سياقين علميين متباينين، فمن بين أحبائه من نعته بصاحب العقلية الجماعية، مكان الإنتاج العلمي الجماعي، المنير، البصير، المثقف الفرنسي الأكثر مقروئية وتأثيرا في العالم وعملاق الفكر... بينما نعته خصومه بالمنشغل بالسلطة، المثقف الكهنوتي، الشيخ الروحي، المثقف المرتبط بوسائل الإعلام، الكاهن الكبير للحتمية، قائد طائفة، المثقف المهيمن والمهيج للأعصاب.

يعد الاشتغال مع بورديو اندماجا في جماعة بقواعدها وأهدافها بل وقوانينها، هذه الجماعة التي دفعته إلى إنشاء مجلة(1) وضعته في نفس المستوى مع "جون بول سارتر" والتي كان من أهدافها إيجاد مكان للذين كانوا مقصيين من الدعائم العلمية الموجودة حيث نشر لعلماء الاجتماع الذين اهتموا في بحوثهم بالفقراء، المحتشدات، الصورة، العمال الجزائريين. كما اهتم بالمواضيع المهملة بل المنبوذة من طرف الثقافة المعبرة بمثابة ثقافة عالية وكبيرة.

-2- بورديو الابيستيمولوجي:

نقصد بالابيستيمولوجي أساسا طبيعة المواضيع المختارة التي وضعها على هرم اهتماماته العلمية وكذا نقده لما هو قائم وموجه للباحثين آنذاك إنها مواضيع سوسيولوجية مخالفة لما هو مألوف إذ اهتم بالبنى الفوقية، الأذواق، رغبات الناس، ألبستهم، مأكولاتهم، هذه المواضيع التي لم تكن تجلب الاختصاصيين بخلاف تلك المتمثلة في سوسيولوجيا الفعل، التنظيمات، المجتمع الصناعي، والعالم السياسي.

لقد اهتم بمواضيع نموذجية كانت متجاهلة أو محتقرة من طرف معاصريه المهتمين بالمواضيع ذات المدى الكبير والمتعلقة بالمجتمع الكلي أكثر من مكوناته الفردية وأذواقهم. يعني هذا التوجه أن هناك تثمين للحس المشترك الذي بادر سنة 1965 بإنشاء سلسلة علمية بخصوصه بدار النشر Ed de Minuit أصبح هذا التوجه مشروعا علميا من خلال إعطائه الأهمية القصوى للتجربة والأشياء الصغيرة، الناس البسطاء والعاديين.

جدير بالذكر القول أنه أدرك أكثر من غيره أن التصورات والتعابير والوظائف العادية والممارسات والتجريبية في مقابل البحث النظري تحمل في طياتها محددات المعرفة وكذا الغنى في فهم الكون (فالتفكير السوسيولوجي هو القدرة الكونية لإدراك الجمال بل القدرة على فهم الإحساس باللافهم، وعدم الاهتمام/ أولائك اللذين يفتقدون للاستعداد والكفاءة الجمالية.. يعد الفن شيئا جميلا بالفعل إلا أنه يتساءل عن من المستفيدين ومن المحروم منهم وما هي دواعي ذلك؟

لقد تابع باهتمام كبير الاختلافات في الأشياء والأحداث والميكانيزمات الصغيرة أيضا، فهي بالنسبة إليه عملية إصغاء للمطالب الخصوصية وتبقى هذه المسألة القائمة إلى اليوم وبكل قوة، المسألة المتعلقة بضرورة الابتعاد عن الاثنومركزيين التي تجعل من أوروبا منبع كل الاختراعات وكل التطورات ومن ثم الاعتراف بأشكال أخرى من الثقافة. لقد كان يحذر من الاثنولوجيا التي كانت تقيم الثقافات من منظور المرجعية الوحيدة للنموذج الغربي، مما جعله يقطع مع اعتبارات الاثنولوجيا العادية التي تجعل من الأهالي أناس غير قادرين على التنبؤ، يعيشون ويتحركون في الحاضر فقط .

والحقيقة أن الأمر مخالف تماما إذ يحدد الزمن إيقاع حياتهم الفكرية والمادية، ف "بورديو" لا يعد من بين الماضويين المرتبطين بماض تقليدي يراد إعادة إحيائه بصيغته الماضية ومع هذا فهو يرفض إهمال هذا الماضي بلا قيد ولا شرط إنه ليس الاثنولوجي الجاري وراء الميثولوجيات أو الإنسان في صفاته الأولى كانت حسنة أم سيئة.

وأما بخصوص العلوم الاجتماعية فقد حاول الجمع بين الحقول العلمية والمعاصرة التي كانت مجزأة حينها بين الفينومولوجيين والفلسفة التحليلية والبنيوية، فكانت أولى انشغالاته فرض العلوم الاجتماعية في وجه الفلسفة التي كانت حسبه لا تساهم في تحسين طبيعة التفكير حول المسائل المهمة للحياة اليومية علما أنه كان يفضل تاريخ الفلسفة المرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ العلوم.

-3 -بورديو المنهجي

ينتقد "بورديو" الباحثين الرافضين صياغة فرضيات في إطار نظرية علمية إذ يعين بالنسبة إليه هذا الرفض جبروت توظيف الأفكار المسبقة التي هي بمثابة أفكار جاهزة لعلم الاجتماع عفوي وإيديولوجي،إنها أسئلة ومفاهيم لفاعلين اجتماعيين لا لسوسيولوجيين علميين.

فبخلاف البنيوية التي تهدف إلى تثبيت البنيات والتي اعتبارها محددات نهائية على حساب المبادرة الفردية للفاعلين، يطرح "بورديو" فكرة أن الأفعال والرجال هم نتائج تاريخ يتعاملون معه على شكل صراع وتوتر ونزاع. ويعني هذا أيضا أن أسبقية البنية في الفهم هي بمثابة ترجيح التزامنية على التعاقبية.

يعتبر السؤال السوسيولوجي عملية مستمرة للأبد كما يبقى الكتاب مفتوحا دائما إذ يرفض رفضا قاطعا فكرة المنهج النهائي والنص النهائي لأنه يتصور الإنتاج العلمي إنتاجا قابلا وبصفة دائمة لإعادة النظر والكتابة بكلمة أخرى نحن نتعلم في انجازنا لعمل ما، هذا العمل اللامتناهي الذي تنمو في ظله المعرفة في المواجهة مع الواقع ومع الآخرين .

لقد مارس دائما سوسيولوجيا الميدان حتى وإن طعمها بالإحصائيات التي ادخلها علي العلوم الاجتماعية إن مناداته بالتحقيقات الميدانية جعلته يختلف عن المنظرين النظريين البنيويين أولئك الذين يتبنون الفكرة الخاطئة الداعية إلي تطعيم المعنيين بأفكار أنتجها علماء بخصوصهم كانت تجري التحقيقات الميدانية في اغلب الأحيان بواسطة المقابلات بالقرب من الواقع المراد دراسته و المتمثل في العادات والأعراف والقناعات والممارسات والحركات واللغة مما جعله يحدد الكلمات ذات الوزن الثقيل في اللغة الأصيلة كما أخذ أيضا بعين الاعتبار تصوراتهم للزمن والفضاء والقيم والشرف

والرمزيات بكل اختلافاتها مع تلك الموجودة في الثقافة الفرنسية.

جدير بالذكر انه جمع معطياته من الميدان عندما كان يتنقل مع "عبد المالك" وكان ذلك يتطلب الشجاعة والجرأة والحب هذه الصفات التي لم تكن علمية فحسب للسوسيولوجيا حتى يخاطر بنفسه ويشرف علي فرق بأكملها من المحققين والطلبة الجزائريين بل كان يتطلب قوة نظرة ثاقبة وقوة المثال الذي كان يعطيه للذين يعملون معه بتضحيته الشخصية في ظرف عمل وحياة مماثلة مما يعطي الثقة الكبيرة للجميع.

-4-بورديو السوسيولوجي والتجربة الجزائرية:

أجريت تحقيقاته الميدانية في الثلاث مدن الكبري "الجزائر، العاصمة، وهران، قسنطينة" وثمان مدن متوسطة إلي جانب أوساط ريفية ويبقي وجوده في الجزائر السبب الرئيس لتوجهه الاثنولوجي ومن بعده السوسيولوجي هذا المجتمع الذي اهتم به طوال حياته كعالم اجتماع والذي اوحي اليه أعماله الاولي فكان معجبا بالأسفار والسكان الذين جعلوه يكتشف من خلال أعرافهم قوة الرمزية مما جعله مهنيا عالم اجتماع بمعني إن ما أصبح عليه لاحقا مرتبط ارتباطا وثيقا بتجربته بالجزائر ليس فقط كسوسيولوجي بل أيضا كإنسان .

لا تتمثل بالنسبة إليه مساعدة الجزائر في التحرير في تشجيع مقاتليها المسلحين بقدر ما يجب تقديم إياها نماذج التحضر المطابقة لثقافتها وتقاليدها تمثلاتها قناعاتها، ففي السياق نفسه لاحظ تنظيم الوقت وتربية الأفراد وخدمة الحقول والحياة الجماعية وتركيبة التبادلات بخصوص الهبة وتنظيم الفضاء داخليا وخارجيا انه مجتمع تتحكم في تبادلاته المادية مدونة الشرف والتضامن الإنساني بعيدا عن تصور الفائدة المادية والنقدية للمعمرين .لقد انشغل واشتغل بفينومونولوجية البنيات العاطفية- موضوع مشروع أطروحة لم تنجز والمتجسدة في تحليل أشكال المعاناة المتولدة عن التضارب بين البنيات العقلية العاطفية –ملكة الفاعلين الاجتماعيين- والبنيات الاقتصادية والاجتماعية المفروضة من طرف المجتمع الاستعماري.

تميز عرضه لوضعية الجزائر دون شفقة ولا تفخيم ولا إديولوجية إذ تمثل هدفه أساسا في إبراز المنطق والانعكاسات لهذه التحولات الكبيرة المفروضة على الشباب الأهليين من طرف الاستعمار هذه الفترة الممتدة لأكثر من130سنة من الاحتلال و التي اعتبرها منبع المأساة التي عاشتها الجزائر مؤخرا وخاصة فيما يتعلق بالعنف محملا المسؤولية للدولة الفرنسية .

-5-بورديو السوسيولوجي الكوني :

هل وجدانية بورديو التي كان يرغب في أن تكون موضوع أطروحته هي المحددة لسوسيولوجيته؟ حتى وأن نفى ذلك إذ أشير على أن خطابه السوسيولوجي منفصل تماما عن تجربته الشخصية من خلال ممارسته السوسيولوجية.

يكمن المنعرج الذي جعل من "بورديو" ذلك المطلع والناقد للمؤسسات والنخب الاجتماعية والعلمية في تلك المعاناة التي كان يذكرها بإلحاح في حواراته في مرحلة النضج أين ندد باللامساواة وتساهل المؤسسات الرسمية مع البعض.

لم تقتصر سوسيولوجيته على التركيبة الاجتماعية لطبقته بقدر ما اهتم بدراسة المترددين على المقاهي والمسافرين في المترو والقطار.

يوضح الاختلاف بين الناس طبيعة وجودهم ويحافظ في الوقت نفسه على الوضع القائم فهو يحدد الطبقات من ظروف حياتهم وممارساتهم الثقافية إذ يؤكد على أن الأصول الاجتماعية وما ينعكس عنها هي المحددة للنجاح المسكن، طرق ونماذج الحياة، الاستعمالات الثقافية باعتبارها المساعدة على التدريبات الأولى بخلاف من يركزون على الظروف الاقتصادية للأسرة.

ظهرت أهم صفات مشروع بورديو وتمثلت في علم يخدم المجتمع بمعنى استعمال ووصف الثقافة ونمط حياة السكان العام و للقرار السياسي بدلا من أي اديولوجية بأنماطها المسبقة .فالتمايز لا يقتصر على خصوصية الفاعلين الاجتماعيين اللذين تناولهم البحث السوسيولوجي والمنبوذين إلى حد كبير بحجة أنهم قريبون كثيرا من الحياة العادية .إن ما يميز مشروع بورديو يتطابق والإرادة الأخلاقية والسياسية لتحويل العالم.

يرتكز نقده الاجتماعي على قاعدة ابستيمولوجية وسياسية مفادها إبراز طلائع الهيمنة السياسية داخل مبادئ العلم , فلا يمكن فهم الخضوع المباشر الذي يحقق النظام العام بمثابة خضوع ميكانيكي لقوة ولا هو موافقة واقعية لهذا النظام.

إن التركيز على اختيار الرجال لقراراتهم قد لا يكون نتيجة حساب عقلاني بقدر ما هو معنى تجريبي خاص بهدف توليد استراتيجيات النجاح.

وفي خضم هذا الطرح يرى بورديو أن المدرسة تشتغل في معناها الواسع كوسيلة انتقاء أكثر منها وسيلة دمج وفي حالة ما إذا التحق الأكثر حرمانا بالجامعة يكون هذا الالتحاق بالشعب الأقل أهمية .

لقد وضع تحت مفهوم "رأس المال الثقافي" العادات والوسائل والكفاءات اللغوية أو الألسنية المحصل عليها وبخاصة منذ سنوات الصبى. لذا توصل إلى نتيجة على شكل قاعدة: يساوي الماضي الاجتماعي الماضي المدرسي، ومهما يكن تبقى

الاستعدادات المرتبطة بالمعنيين منذ الصغر في المنزل محددة حتى وإن كانت ظروف الحصول على المعرفة مشابهة للجميع.

تعد سوسيولوجيا الثقافة والتربية والمثقفين موضوع بحث "بورديو" بامتياز ناهيك عن التحقيقات الميدانية حول الممارسة الفلسفية والذهاب إلى المتاحف بالإضافة إلى أبحاث حول أساتذة التعليم العالي ودور النشر ودور المثقفين والوظيفة الاجتماعية للمجلات الأدبية والسياسية والتعميم العلمي وركائزه.

الخاتمة:

لا يتصف هذا العرض وهذه الحوصلة بالطابع العلمي البحثي بقدر ما قصدنا اقتراح جوانب أساسية ومتكاملة لشخص المفكر "بورديو" بطريقة تربوية ليس إلا، هذه الجوانب التي تكون في حقيقة الأمر وحدة عضوية متداخلة في اللحظة نفسها.

وفي هذا المقام نركز على فكرتين نراهما أساسيتين، أولاهما تتمثل في موقفه الابيستيمولوجي الداعي إلى اختيار مواضيع لصيقة بالممارسات الاجتماعية للناس العاديين، مما جعله يختلف مع جل الباحثين السوسيولوجيين في وقته بينما تتعلق ثانيهما بالجانب السوسيولوجي والمنهجي، إننا لسنا مقتنعين بالطرح الداعي إلى وجود بورديو المحلي "الجزائري" وبورديو الكوني لأن كونيته ما هي إلا استمرارية "لمحليته" من خلال طبيعة المواضيع المعالجة وكذا طبيعة طرحه المنهجي أولا بصياغة فرضيات في إطار خلفية نظرية محددة حتى تتعدى الأفكار الجاهزة والمسبقة من جهة، وبلورة بنيويته التوليدية على أساس مفهوم الملكة (L'habitus)التي مفادها تنتج الظروف التي نحن موجودين فيها نمط معين من الاستعدادات، هذه الاخيرة التي تعيد إنتاج تلك الظروف من جهة أخرى. وفي الأخير نشير إلى أن بورديو وصف النقاش القائم على أساس الشمولية (الجبرية) أم الحرية الفردية على أنه نقاش خاطئ بحيث أنه كما أعطى أهمية للجبرية لم يغض الطرف أيضا عن وزن الحرية الفردية في الممارسات.

أ.د بشير محمد جامعة تلمسان

الهوامش

(*)Marie-Anne LESCOURRET, BOURDIEU : vers une économie du bonheur, éditions Flammarion, 2008 (Grande biographie).

1- Les actes de la recherche en sciences sociales